كتابان جديدان عنه وفيلم وثائقي في مئوية ولادته

جورج أورويل «الشرطي الإمبريالي» جعل الكتابة السياسية فناً راقياً

□ في مئوية ولادته التي صادفت في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٠٣، يبدو الكاتب البريطاني جورج أورويل من أبرز الشخصيات التي يجب تذكرها في أيامنا هذه. فمنذ الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، لم يغب أورويل كمرجع أساسي لقراءة الحرب على الإرهاب. هنا مراجعة لكتابين جديدين عنه وفيلم وثائقي تناول سيرته.

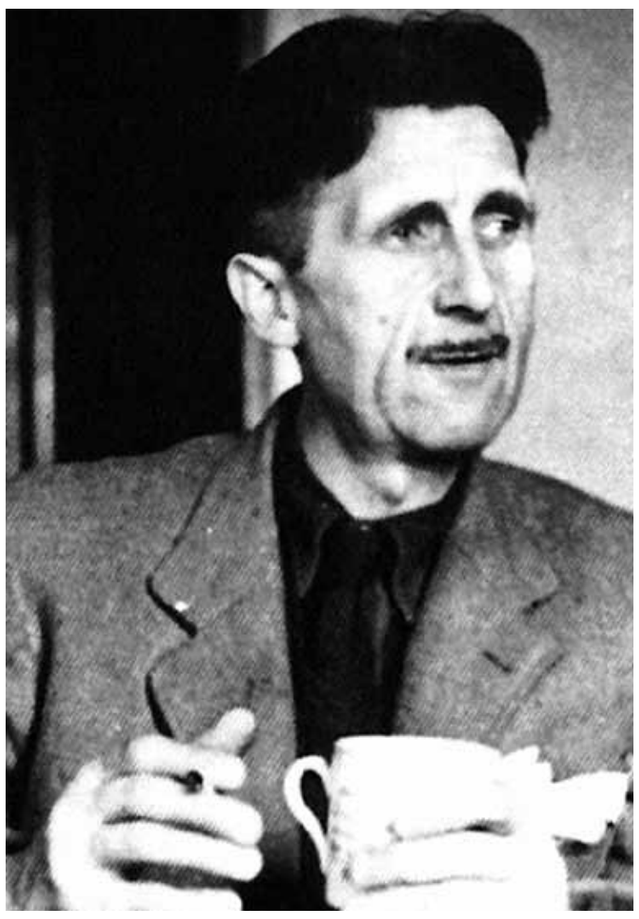

جورج أورويل: مئوية الولادة.

سوزانا طربوش

■ أثار كتاب «نصر أورويل» Orwell's Victory (المعنون: «لمَ يعتبر أورويل مهماً؟» في الولايات المتحدة الأميركية) الذي وضعه البريطاني اليساري السابق كريستوفر هيتشنز بلبلة واسعة النطاق. ويعتبر هيتشنز، القاطن في الولايات المتحدة الأميركية، من أشدّ المدافعين عن الولايات المتحدة منذ أحداث الحادي عشر من أيلول. ويتفق هيتشنز مع أورويل في شأن «المثل الإنكليزي المعروف عن المنشق الذي آثر الإخلاص للحقيقة أكثر من أي ولاء آخر».

من جهة أخرى، هاجم أستاذ الدراسات الأميركية في جامعة بيرمينغهام سكوت لوكاس هيتشنز وبعض المفكرين على غرار سلمان رشدي وفرانسيس فوكوياما وجو كلاين بسبب رفضهم، «باسم الحقيقة الأورويلية»، أية معارضة تطاول بعض نواحي الحرب على الإرهاب والتعتيم على أي حوار عن أسباب نشوء هذا الإرهاب.

وتضاف هذه المناوشات حول أورويل الى خلافات سابقة حول تجاربه في ميدان محاربة الجمهوريين أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، كما هو مذكور في كتابه «تحية الى كاتالونيا» Homage to Catalonia. وأصبح أورويل، بعد فترة أمضاها في إسبانيا، شديد الانتقاد حيال الاتحاد السوفياتي. وبلغ انتقاده هذا ذروته في روايته «مزرعة الحيوانات» Animal Farm الصادرة عام ١٩٤٥. (أوضح أورويل أنه وضع الكتاب كتحذير ضد العواقب الكامنة لأية ثورة عنيفة). وشهد مطلع التسعينات صدمة كبيرة عندما كشف النقاب للمرة الأولى عن إفشاء أورويل ٣٨ شخصاً من المتعاطفين الشيوعيين الى دائرة الأبحاث والمعلومات التي أنشأتها وزارة الخارجية عام ١٩٤٨ لدرء النفوذ السوفياتي.

ومهما كانت صوابية النقاشات حول أورويل أو عدم صوابيتها فهي دليل على أثره العميق والدائم والمتجذّر في الحياة البريطانية الثقافية. واستخدم عدد كبير من الصحافيين نعت «أورويليّ» عند وصفهم بعض التطورات الأخيرة التي طرأت على الساحة السياسية.

وتستخدم صفة «أورويلي» في معظم الأحيان عند التحدث عن مجتمع ديكتاتوري، أسوة بذاك الذي ذكره أورويل في كتابه الأخير «١٩٨٤» الصادر عام ١٩٤٩. وتشمل خصائص هذا المجتمع عبارات مثل: «فكّر مرتين» Double think، و«ذروة الأخبار» Newspeak و«شرطة الفكر» Thought Police، و«وزارة الحقيقة» Ministry of Truth، و«الأخ الكبير يراقبك» Big Brother is watching you، ناهيك عن شعارات سياسية على غرار «الحرب سلام» War is Peace.

تجد هذه المفاهيم صدى لها في الولايات المتحدة وبريطانيا، حيث تتزامن الشعارات البسيطة والسرية الحكومية والتلاعب الرسمي بالحقيقة وقمع الحريات الفردية، مع الحرب على الإرهاب ونمو امبريالية جديدة.

ومما لا شك فيه أن للنظام الديكتاتوري الموصوف في رواية «١٩٨٤» قواسم مشتركة مع بعض أنظمة القرن الحادي والعشرين، خصوصاً نظام صدام حسين، ذلك الأخ الكبير الذي يراقب التحركات من ملصقات تعج بها البلاد، تحمل صورته بشاربيه وعينيه الحالكتين.

ويذكّرنا المعجم السياسي المستخدم منذ الحادي عشر من أيلول، بتحذير أورويل من عواقب الاستخدام المضلل للمفردات في الخطابات السياسية في كتابه «السياسات واللغة الانكليزية». مثلاً: «تتعرض القرى التي لا حول لها لغارات جوية، فيهرع السكان الى الريف، وتتعرض الماشية لإطلاق نار بالآليات الرشاشة، وتضرم النيران بالأكواخ بالقنابل الحارقة: هذا ما يسمّى بالصلح».

ويؤكد أورويل: «إذا كان الفكر يفسد اللغة، فاللغة قد تفسد الفكر أيضاً... فاللغة السياسية – وينطبق هذا الأمر على الأحزاب السياسية كافة، من المحافظين الى الفوضويين معاً – مصممة لإظهار الأكاذيب بحلة الحقيقة، وجعل الجريمة أمراً مقبولاً به، وإضفاء صفة الجدية على ما هو مجرد هراء».

عندما توفي أورويل عام ١٩٥٠ عن عمر يناهز السادسة والأربعين، كانت له مليونا كلمة منشورة. وتصل أعماله التي نشرها بيتر دايفسون عام ١٩٨٨ الى عشرين مجلداً. وتشمل انتاجية أورويل روايات ستاً، وثلاثة كتب وثائقية غير خيالية، وعدداً لا يحصى من الأبحاث والمقالات والرسائل. عاش أورويل حياة مضنية لتوفير لقمة العيش، إلا أنه أضحى، بفضل روايتيه «مزرعة الحيوانات» و«١٩٨٤»، من أشهر المؤلفين البريطانيين على الاطلاق. فمع حلول عام ١٩٥٥ بيع أكثر من أربعين مليون نسخة من كتابيه في ستين لغة مختلفة.

نشرت سيرتان في بريطانيا عن حياة أورويل احتفالاً بمئويته: «أورويل: حياته» بقلم د. ج. تايلور، منشورات «شاتو ووبندوس» Chatto and Windus و«جورج أورويل» بقلم غوردون باوكر منشورات «ليتل، براون» Little, Brown.

تسرد السيرتان تفاصيل حياة أورويل في شكل معمّق، وحاول المؤلفان البحث عن مصادر جديدة للمعلومات. وتمكن باوكر من العثور على ملفات للاستخبارات الروسية KGB تظهر بوضوح مدى الخطر المحدق بـ«أورويل» وزوجته في إسبانيا بسبب السلطات السوفياتية.

وتغوص السيرتان في أسرار أورويل والناحية الغامضة من حياته. ويذكر باوكر تفاصيل أكثر دقة حول علاقة الروائي بالنساء قبل زواجه وبعده. كما يزعم اهتمام الأخير بالسحر الأسود، مستنداً في ذلك الى حادثة قام بها وزميله في مدرسة إيتون «ستيفان رونسيمان» (الذي أمسى في ما بعد مؤرخ الحملات الصليبية المشهور) بكسر ساق دمية من الشمع، صنعاها لتمثل صبياً لا يكنان له حميد المشاعر. وبعد أيام معدودة كسر الصبي رجله فعلاً حين كان يلعب بكرة القدم ليموت لاحقاً جراء سرطان الدم (اللوكيميا).

كان الروائي والناقد الأدبي د. ج. تايلور من أشد المعجبين بـ«أورويل» منذ نعومة أظفاره، إلا أنه حاول وضع تقويم متزن عنه، وأدرج فصلاً بقلم رفيق خيالي «X» يحمل عنوان «قضية أورويل» ينتقد فيها الرفيق المذكور أورويل الروائي والباحث والمفكر السياسي «الساذج». ويزعم الرفيق أيضاً أن من يحتقرهم أورويل أشد احتقار، كالاستخبارات المركزية الأميركية CIA «التي صنفت «١٩٨٤» نصاً سياسياً حول عقود الحرب الباردة»، أكثر من ساهم في تلميع صورته وإعطائه حجماً أكبر من حجمه.

ويضحد د. ج. تايلور الاتهامات التي وجهها البعض الى الروائي بمعاداته السامية، ذاكراً من دون تعمق، معارضة أورويل فكرة إنشاء دولة صهيونية.

وتحتفل الـ«بي بي سي» بمئوية أورويل عبر بث برامج إذاعية وعرض حلقات تلفزيونية خاصة. وبثت «بي بي سي أربعة» سلسلة من أبحاث أورويل وأعماله في الميدان الصحافي، بما فيها وصفاً لعمليات الشنق التي كان شاهداً عليها في الشرطة الهندية الامبريالية و«اعترافات مرحة لناقد أدبي».

وما زالت دراسات أورويل البحثية نضرة مذهلة، وهي تظهر إنسانيته الفذة ومرحه ودقته في آن واحد. ولا شك في أن الدراسات هذه مكتوبة بأسلوب واضح عكف أورويل على اكتسابه، ولا سيما أنه يعتبر «النثر الجيد لوح زجاج في نافذة».

وفي سلسلة بثتها محطة «بي بي سي ثلاثة»، قرأ عدد من المؤلفين، أبحاثاً تناول فيها أورويل وحياته، وفي طليعة هؤلاء الروائية الكندية مارغريت آتوود الحائزة جائزة أدبية، والتي قرأت فصولاً من دراسة أعدتها حول أثر روايتي «مزرعة حيوانات» و«١٩٨٤» في طفولتها وحياتها كروائية.

وعرضت شاشة «بي بي سي ٢» قبل أيام فيلماً وثائقياً مدته تسعون دقيقة بعنوان «جورج أورويل – حياة في صور»، وهو من أفضل الأفلام الوثائقية المعدّة في المحطة وأكثرها روعة. وواجه المنتج والمخرج «كريس دورلاكر» مشكلة عند إعداده الوثائقي لافتقاره الى مشاهد حية عن أورويل مسجوبة على فيلم أو أي تسجيل صوتي حيّ له.

وتخطى دورلاكر المشكلة هذه عبر إسناده دور جورج أورويل الى الممثل كريس لانغهام واستخدامه تقنيات قديمة لصناعة الأفلام بحيث يخيل إلى المرء أن الشخص الظاهر في الفيلم هو أورويل فعلاً. ويبدو كريس لانغهام في الفيلم شبيهاً بأورويل الى حد بعيد، بجبينه العالي ووجهه الناتئ العظام.

من الفيلم.

ونراه في الفيلم بأكمله مفرطاً في التدخين تماماً كما كان الروائي البريطاني في حياته على رغم معاناته تدهوراً رئوياً نتيجة السل.

صور الجزء الأكبر من الفيلم باللونين الأبيض والأسود، والبعض منه على طريقة الأفلام الصامتة أو جريدة السينما القديمة، أو مقابلات الـ«بي بي سي» الأولى، أو على طريقة الأفلام المنزلية الزاخرة بالمفاجآت التي تظهر أورويل وزوجته آيلين في منزلهما الريفي المتواضع. عام ١٩٤٤ تبنى جورج وآيلين ولداً صغيراً هو «ريتشارد»، ولكن آيلين توفيت عام ١٩٤٥ تحت مفعول المخدر أثناء خضوعها لجراحة. وتزوج أورويل قرينته الثانية سونيا في المستشفى قبل وفاته بقليل.

ويسرد الفيلم حياة أورويل منذ ارتياده مدرسة داخلية في انكلترا قضى فيها أياماً تعيسة حتى الثامنة من العمر، ليقصد بعدها مدرسة «إيتون» الخاصة للصبيان بعد وصوله على منحة دراسية. ويقول عنه زميله في الدراسة الكاتب سيريل كونولي انه «كان مثل سقراط مشككاً في كل ما يفعله الناس ويقولونه على الدوام».

لم يقصد أورويل الجامعة، إلا أنه قضى في بورما سنوات خمساً عمل خلالها في الشرطة الامبريالية الهندية التي شكلت موضوع روايته «أيام بورما». وعاد أدراجه عازماً على أن يصبح كاتباً. وقاد الروائي نضالاً صعباً للوصول الى الهدف المنشود، فذاق فترات من الفقر المدقع نجد وصفاً دقيقاً لها في كتابه «محبط ومكسور الخاطر في باريس ولندن» Down and Out in Paris and London الصادر عام ١٩٣٣. اسمه الحقيقي «إيريك بلير»، إلا أنه ارتأى تبديله عند نشره كتابه الأول تفادياً لإحراج أهله.

كل الكلمات التي تفوّه بها كريس لانغهام في الفيلم مقتبسة من أعمال أورويل المنشورة. يبدأ الفيلم بمقابلة مع الـ«بي بي سي» تستند الى دراسته البحثية «لم أكتب؟» Why I Write. ويقول أورويل: «كل الكتّاب تافهون وأنانيون وكسالى، وفي أعمق دوافعهم سر غامض». ويقول كذلك: «إن مهمة كتابة رواية نضال مرهق، كنوبة طويلة ناجمة عن مرض مؤلم، وليس لأي خوض هذه المغامرة ما لم يدفعه إليها شيطان يعجز عن مقاومته أو فهمه».

شغلت تجربة أورويل في الحرب الإسبانية الأهلية تفكيره وكتاباته على الدوام. وهو يقول:

«قلبت الحرب الإسبانية والأحداث الأخرى الواقعة بين عامي ١٩٣٦ – ١٩٣٧ المقاييس فعرفت بعدها أين مقامي. كل سطر من الأعمال الجدية كتبته منذ عام ١٩٣٦ كان موجهاً في طريقة مباشرة وغير مباشرة ضد الديكتاتورية ولمصلحة الاشتراكية الديموقراطية، كما أدركها أنا». (تعرّض أورويل في إسبانيا لإطلاق نار فأصيب برصاصة فاشية كادت تودي بحياته).

أثناء الحرب العالمية الثانية كان أورويل أبعد ما يكون عن الفاشية. ويؤكد الروائي بحزم أن «السلامية رديف لمساندة الفاشية موضوعياً – فإذا عرقلت جهود طرف ما لإشعال حرب، ساعدت تلقائياً جهود الطرف الآخر التي تصبّ في هذه الخانة». ودعا أورويل الشعب البريطاني الى التسلّح وزوده نصائح ملموسة حول إنشاء «الحرس الوطني» في بريطانيا.

انضم أورويل الى قسم «بي بي سي» الإذاعي الشرقي أثناء الحرب، فكان، كما وصفه صديقه ديفيد آستور: «ناطقاً متردداً باسم الحكومة». عام ١٩٤٣ استقال من الـ«بي بي سي» ليركز نشاطه على كتاباته.

عندما كتب أورويل روايته المناهضة للاتحاد السوفياتي «مزرعة الحيوانات» كان يعبّر عن قلقه من خداع جهود الحرب السوفياتية الشعب، لحثّه على اتخاذ موقف مؤيد للحكومة السوفياتية. ووصف أورويل كتابه قائلاً: «إنه أول كتاب أحاول فيه دمج الهدفين السياسي والفني في قالب واحد بوعي مطلق... أردت بكل جوارحي تحويل الكتابة السياسية الى فن قائم بحد ذاته».

جورج أورويل: أكتب لأفضح الكذب ... وألفت الأنظار الى الحقيقة الجارحة

■ لماذا كتب جورج أورويل، أو لماذا يكتب أي كاتب أصلاً؟ سؤال يطرح نفسه بلا هوادة، خصوصاً أن معظم الإجابات تنتهي الى أنّ لا جديد تحت الشمس وان ما قيل مرّة أو مرات منذ بدء الكتابة، إنما يعاد قوله في أساليب باتت محور الكتابة كفن، أما المضمون فلا إضافات فيه منذ الملاحم والأساطير الأولى، وهذه لم تزل ينابيع إلهام هادرة ومعطاء حتى اليوم.

أما جورج أورويل فكان في الخامسة أو السادسة من عمره حينما أدرك أنه سيصبح كاتباً في المستقبل. وبين السابعة عشرة والرابعة والعشرين أصيب إدراكه باهتزاز عنيف جعله يحاول الإقلاع عن الكتابة. إلا أن ذلك كان مجرّد اعتداء مازوشي على طبيعته وموهبته. ويعتقد أورويل أن «غربته» كطفل بين أشقاء يكبرونه أو يصغرونه بخمس سنوات، وعدم معرفته بأبيه حتى بلوغه الثامنة من عمره، عوامل جعلته ينكفئ على ذاته مستوحداً يفبرك حكايات وشخوصاً يحاورهم، ويقاوم بهم عامل الانعزال والشعور بغياب التقدير والإهمال.

كان ادراكه لموهبته في صناعة الكلمة درعاً واقية انقذته من مواجهة الظروف الاجتماعية واللحظات الحرجة، إلا أن كتاباته الأولى لم تكن واعدة أو مميزة بما يشير الى مستقبل أدبي فريد، بل كان مقلّداً للشعر الرومانسي على الطريقة الجيورجية وكاتب قصص ومقالات ذات طبيعة ساخرة أو منحى وطني بحسب المناسبة. اللافت في مرحلة مراهقته سرعته في تأليف أيّ نصّ مهما كان صعباً بما في ذلك القصائد المنظومة المطوّلة. وكان يسهم بحيوية ونشاط في تحرير صحيفة المدرسة.

«الى جانب ذلك كله»، يقول أورويل، «كنت أؤلف في ذهني قصة بلا نهاية أنا بطلها المتغيّر باستمرار». تارة يكون روبن هود المغامر الخارج على القانون وطوراً أحد فرسان الطاولة المستديرة في مواجهة حاسمة مع الموت! وخلال ذلك التخييل كان «يكتب» في خاطره وحسب وصفاً دقيقاً لبعض المواقف، ثم يعيد صوغه في مناسبة أخرى. واستمرّت تلك العادة وهو متأثر بالمطالعات الوصفية واللغة التزيينية التي طبعت رواية ما بعد الحرب العالمية الأولى. ويذكر أورويل ان الوقع الجمالي للكلمات كان يسبب له قشعريرة في العمود الفقري، وترسّخ لديه الاقتناع بأن الكتب التي ينوي تأليفها ستكون ضخمة ومزدانة بالوصف واللفظيات المنمقة. وفي الواقع جاءت روايته الأولى «أيام بورمية» تعكس، الى جانب تجربته في خدمة التاج على أرض بورما، أسلوب الإنشاء الروائي المزخرف بالأوصاف والكلف بالجماليات المجانية.

من الضروري جداً، يؤكد أورويل، أن نعرف الخلفية الاجتماعية والسياسية والأدبية للكاتب كي نستطيع تشكيل صورة ما عن صيرورته الابداعية، لذا قبل الإجابة عن سؤال: لماذا كتب؟ كان لا بدّ من لمحة عن نشأته مع القلم.

يردّ أورويل دوافع الكتابة الى أربعة أسباب، خصوصاً كتابة النثر الفني كالرواية والقصة المسرحية. العوامل الأولية بنظره هي الرغبة في الظهور بمظهر الذكاء، وأن يكون الكاتب مصدر أخذ ورد، وأن يُذكر بعد موته، وأن يرد الصاع صاعين لمن أهمله وتجاهله في طفولته، الخ... «من نافل القول» يقول أورويل «ألاّ نعتبر تلك الدوافع، فهي قوية وحاضرة». وتشمل بنظره قطاعاً أوسع من المبدعين كالعلماء والفنانين والسياسيين والمحامين والجنود ورجال الأعمال الناجحين، باختصار: قمم الذكاء في المجموعة البشرية. أما بقية الناس فليسوا أنانيين بالنسبة نفسها، بل ان معظمهم يتراجع عن فرديته المحضة بعد الثلاثين من العمر أو تفعل به الحياة ما يؤدي الى كسر شوكته. إلاّ أن ذلك لا ينطبق على الكتّاب فهم عظيمو المكابرة مصممون على عيش حياتهم حتى النهاية.

السبب الثاني هو الشغف بالجمالية خارجية وفنية على السواء، والمتعة في توليدها على كلّ المستويات. كذلك الرغبة في المشاطرة والتواصل والتبليغ. لكن هذا لا يعني أن الجمالية بحدّ ذاتها دافع قويّ وكاف، بل هو دافع مساعد ومنشط.

السبب الثالث هو الحدس التاريخي، أي الرغبة في تصوير الحقيقة التاريخية للشرط الإنساني وحفظها في قالب فني مبدع.

السبب الرابع هو الهدف السياسي. والسياسة في منظور أورويل هي إرادة التغيير، أو دفع العالم نحو تحقيق نقلة نوعية. وهو يعتقد أن مقولة فصل الفن عن السياسة هي بذاتها موقف سياسي. ويؤكد أورويل انه لو لم يعش في زمن مضطرب محتشد بالتغييرات والثورات والتطاحن السياسي لما اهتمّ للبند الرابع من مقولته، بل كان أمضى حياته نائياً عن السياسة يكتب اعمالاً مزخرفة بالوصف الجميل والكلام الحسن.

والواقع ان اورويل كان ينتظر، ولو عن غير قصد، حدثاً سياسياً مؤثراً كالحرب الأهلية الإسبانية التي اندلعت عام ١٩٣٦ كي يضع لكتاباته حجر الأساس: «منذ ذلك الوقت اتضح لي ان ما سأكتبه سيكون موجهاً ضد التوتاليتارية مع الديموقراطية الاشتراكية، كما أفهمها» وهكذا انكب اورويل على جعل الكتابة السياسية فناً بذاته، فكانت نقطة انطلاقه التقتيش الدائم عن حس العدالة والمشاركة لدى البشر: «عندما أجلس لتأليف كتاب لا أقول انني سأنتج عملاً فنياً، بل أكتب لأن هناك كذبة ينبغي أن أفضحها، أو حقيقة ألفت إليها الأنظار، وهمّي الأساسي ان أحصل على الانتباه اللازم. مع ذلك لا أستطيع أن أكتب بعيداً من التجربة الإبداعية». ويضيف: «لست قادراً، ولا أريد، أن أهجر النظرة الى العالم كما حلمتها في طفولتي. وما دمت حياً وبصحة جيدة سأجد متعة في النثر الجميل وسأحب صفحة الأرض، وسأتمتع بالأشياء العابرة والمعلومات الهامشية».

بالطبع لم يكن ذلك القران بين الفكرة المحددة والهمّ الإبداعي سهلاً، كونه يثير مسائل بنائية ولغوية ويحفّز على إيجاد مدخل جديد للصدقية في التعبير. وفي كتابه الذي تلا الحرب الأهلية الإسبانية «تحية الى كاتالونيا» يتجلى التجاذب بين التسجيلي والتعبيري بصورة لا تقبل جدلاً. ففي قلب الكتاب فصل كامل من القصاصات الصحافية التي اعتبرها النقاد غير ضرورية ان لم تكن مضرّة ببقية النص. لكن اورويل كان غاضباً جداً ومستنفراً للدفاع عن عدالة مهيضة ما أدى به الى التضحية بالهم الإبداعي البحت في سبيل الحقيقة «كما يراها».

في السنوات اللاحقة، حتى صدور «مزرعة الحيوانات» ركّز أورويل على صهر دوافعه الكتابية في أسلوب موحّد يجمع، الى النثر البعيد من التزويق، تخييلاً مستقبلياً ونقداً صادحاً لمطالع عصر المكننة والسحق الانساني. مع ذلك فهو يأبى اعتبار دوافعه للكتابة مجرّد كفاح سياسي، ويختتم مقالته الشهيرة «لماذا أكتب؟» بهذه السطور: «كلّ الكتّاب مكابرون، أنانيون، وكسالى، وفي عمق دوافعهم سرّ. وتأليف كتاب ما صراع رهيب ومنهك، بل كأنه فترة مرض طويلة. ولا يأخذ المرء على عاتقه مهمة من هذا النوع إن لم يكن مسكوناً(...) لكن المرء لا يكتب شيئاً جديراً بالمطالعة إن لم يستطع محو شخصيته في النتيجة. النثر الجيد كزجاج النافذة. وأنا لا أستطيع أن أميّز أياً من دوافعي هو الأقوى. لكن حيثما فقدت الهدف السياسي جاء ما كتبته خالياً من الحياة مغرقاً في التزويق والزخرف عموماً».

جاد الحاج